- **المحور الاول: المحددات النظرية والمفاهيمية للقانون الدولي للبيئة**

- **المحور الاول: المحددات النظرية والمفاهيمية للقانون الدولي للبيئة**

إن أول ما يعنيه مفهوم البيئة هو التمايز والتغاير والاختلاف، ومن ثمة الغموض والإبهام الواضحين في أحيان كثيرة. و في سياق بحثي هذا فان زاوية التركيز سوف تكون من خلال طرح جديد، بكل ما يعنيه ذلك المعنى من رفاه لصالح الدول الغنية من جهة، وما تعنيه منظومة القيم الجديدة التي أطلقها الفلاسفة والاقتصاديون حول الحدود المفترضة للنمو في شتى الميادين، والتناقص الواضح للموارد الطبيعية بسبب الإنتهاك الفاضح لها، مما يستدعي ضرورة إيجاد صيغ وتصورات جديدة لمكافحة التلوث- بكل أشكاله- من جهة ثانية.

ومن ثمة، فإن الخلاف حول البيئة كمفهوم لا يمكن أن يرد في مرجعيته إلى التوجهات الفكروية للباحثين، ولكن تعود أساسا إلى فلسفة المعالجة المقترحة كمدخل للتعامل مع مشكلات البيئة وأيضا إلى الامكانات المتاحة المحققة لذلك. و بالتالي، فإن النظرة إلى البيئة أضحت مقرونة بكل العوامل الخارجية التي يستجيب لها الفرد والمجتمع في آن واحد، كالعوامل الجغرافية و المناخية من سطح و نباتات وحيوان وحرارة ورطوبة، وكذالك **العوامل البيئية الحضارية التنظيمية** التي تسود المجتمع والتي تؤثر في حياة الفرد والجماعة، وتشكلها وتطبعها بطابع خاص متميز.

و بظهور المفهوم الجديد للتنمية المستدامة[*] أثناء انعقاد مؤتمر" ريو دي جانيرو" حول البيئة و التنمية المستدامة في شهر جوان، عام 1992، أضحت البيئة تعبر عن انشغالات عميقة و متشابكة، ليس بالنسبة للدول الغنية وحدها، بل للدول الفقيرة أيضا. وما جاء ذلك إلا نتيجة لجهود واجتهادات الفلاسفة بدءا من "كونفيشيوس"[**] - مثلما سنرى ذلك لاحقا- و إنتهاء بالتصورات و الصيحات المتلاحقة لحماة الطبيعة وعلماء البيئة حاليا. حيث انه تم التوصل إلى أن الإنسان ككائن حي ما هو إلا جزء من نظام معقد من العلاقات و التفاعلات مع البيئة الطبيعية التي يعيش فيها. و في هذا دلالة واضحة على التأثير الجلي لكل الأفعال و النشاطات البشرية مباشرة كانت أوغير مباشرة.

---

[*] – طرح أيضا في المؤتمر الثامن للمؤتمر الإسلامي بطهران (9-11 /12/ 1997)، وكذلك في المؤتمر العاشر للمؤتمر الإسلامي بكوالامبور- بوتراجيا- ماليزيا (14-1/10/2003م/ 17-20 /09/1424هـ).

[**] – ولد المعلم "كونفيشيوس" K'ong tseu K'ong Fuzi عام 551 قبل الميلاد في لو: Lou - دولة مستقلة من دول الصين في تلك الحقبة- و التي تعرف حاليا بشاندونغ. والكتابات حول "كونفيشيوس" إمتازت بالغموض و المبالغة في بعض الأحيان بسبب الكتابات اللاحقة لمرحلة حياته. إلا أننا نجد إتفاقا حول المرحلة التي عاش فيها والتي إتصفت بنوع من الفوضى، حيث أن السلطة الفعلية كانت تمارس من قبل الوزراء والمستشارين و ليس من قبل الأسرة الحاكمة، كما تميزت هذه المرحلة ببروز الأرستقراطية الإدارية و التي كان "كونفيشيوس" واحدا من أبنائها، حيث شغل العديد من المناصب الإدارية العليا من بينها وزيرا للعدل ورئيسا للوزراء بالنيابة، مبرزا من خلال ذلك تفوقا ملحوظا في ميدان التسيير و التنظيم الإداريين لدرجة أنه جعل الطريق نصفين، نصف للرجال والآخر للنساء، كما وصل عدله لدرجة لم يكن لأحد أن يسرق و لو كان من الأشياء المرمية على الطرقات. كما إستطاع أن يحقق نجاحا دبلوماسيا، لكنه حين لاحظ الفساد و سوء الأخلاق سائدين في القصر الملكي، إضطر إلى الإستقالة، و قضاء أكثر من عشر سنوات في المنفى، بعدها تفرغ للتعليم الأخلاقي و كتابة مؤلفات أهمها: كتاب **الوجهات** (Yiking)، و**الوثائق**(Le Chouking) ، و**الطقوس**(Le Liking) ، و**الربيع و الخريف** (Le Tch'ouen-Ts'ieou) ، و **كتاب المحاورات** (Le Louen-Yu) ، توفي عام 479 قبل الميلاد.

و هذا ما جعل البعض ينظر إلى البيئة من وجهة نظر تاريخية، ذلك أن تاريخ الإنسانية في الواقع، ما هو إلا تاريخ تقدم المدنيات في تكيفها مع البيئة وإستغلالها إستغلالا أكثر كفاءة و أداء، أو في بعض الفترات من تاريخ تراجعها، في انسجامها مع البيئة، ولما كان التقدم العلمي و التقني لا فائدة له إذا لم يحترم نواميس الطبيعة، فانه أضحى المسؤول عن سوء إستغلال البيئة نتيجة تجاهله لنواميسها وتوازنها[1]، وهذا ما يتطلب فهم أفضل لقوانين البيئة كمنطلق **إستراتيجي للمحافظة عليها وحمايتها و تطويرها**.

و من بداية البداية أود أن أشير إلى أن مفهوم البيئة أصبح مرتبطا بمفاهيم أخرى ارتباطا وثيقا، لدرجة أنها تستعمل كمراد فات له في بعض الأحيان، مثل: الطبيعة، نوعية الحياة، إطار الحياة، علم البيئة أو علم التبيؤ (Ecology)، و النظام البيئي أو المنظومة البيئية(Ecosystem)... فماذا تعني البيئة تحديدا؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار ذلك الترادف صحيحا؟

لغويا تشتق عبارة « بيئة » من« بوأ » و « تبوأ »، أي اتخذ مكانا و جعله مستقرا له[2]. فالبيئة هي الاطار الذي يحيا فيه الانسان ضمن مجموعة من النظم الطبيعية و الاجتماعية و الثقافية و السياسية و الاقتصادية. أما البيئة كمصطلح جديد – بالنظرة العلمية الحديثة– فهو يعني فعل الإحاطة و الإكتناف، و المأخوذ أساسا من المصطلح الإنجليزي Environment واشتقاقه Environmental، و الذي أخذ طريقه لأول مرة إلى القاموس الفرنسي «Le Grand Larousse» عام 1972[3]، وفق تعريف مفاده أن البيئة تعني: مجموع العوامل الطبيعية والإصطناعية التي تحدد حياة الإنسان.

وإلى هنا أصل إلى إبراز معنيين متداولين حول البيئة كمفهوم، حيث يرتبط المعنى الأول بميدان علوم الطبيعة والمطبق في المجتمعات البشرية وفقا للإقتراب البيئي بما فيه من معطيات و توازنات بين القوى المتنافسة والمحددة لحياة مجموعة حياتية، و هذا ما يعرف بالبعد التبيؤي (أي الإيكولوجي) للبيئة.

أما المعنى الثاني للبيئة كمفهوم أيضا، يبقى متداولا بين الهندسين المعماريين، والمهتمين بمجال البناء والتعمير[4]، و هنا ينحصر المجال بين الوسط المبني من جهة و الوسط الطبيعي أو الاصطناعي من جهة ثانية، الأمر الذي يؤدي إلى إشكالات قانونية حقيقية أثناء ترجمة هذا المفهوم إلى الواقع، ذلك أن القانون عموما يوجب ضرورة احترام الانشغالات المرتبطة بحماية البيئة.

وكلا المعنين السابقين – في رأيي المتواضع- لا يخدمان طبيعة الموضوع الذي نحن بصدد دراسته. فالبيئة تعتبر بمثابة الوعاء الذي يتم فيه التعامل، فكلما كان الوعاء محكما محدد المعالم، كلما كانت التفاعلات أكثر إستقرارا ورسوخا. و البيئة بمفهومها **الحضاري التنظيمي** تعني وجود عادات و تقاليد و أعراف و ديانات تحدد الخطوط الحمراء للتعامل بين أفرادها.

فما هو مسموح به للتعامل في بيئة ما، قد يكون محرما في بيئة أخرى...لذا فلكل بيئة أو مجتمع خصوصية تتم المعاملات بين الأفراد في حدودها و لا تتعداها[5]. وبهذا تصبح البيئة الحضارية و التي هي عبارة عن منظومة من القيم والفكر والتاريخ والأنماط المعروفة في مجتمع ما، بحيث تنطبع على الشخصية الوطنية للأفراد. وهذا ما تنبه

---

[1] – سعيد محمد الحفار، الموسوعة البيئية العربية، المجلد الأول، الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة المحدودة، 1997، ص33.

[2] – خالد بن محمد القاسمي. وجيه جميل البعيني، أمن و حماية البيئة حاضرا و مستقبلا: دراسة إنسانية في التلوث البيئي، الشارقة- القاهرة: دار الثقافة العربية للنشر و الترجمة و التوزيع – مركز الحضارة العربية، 1997، ص11.

[3] - Michel Prieur, Droit de l'Environnement, Paris: Edition Dalloz, 1996, p.2.

[4] – David Nicholson–Lord (Editor), The Environment Encyclopedia and Directory: a World Survey, London: Europa Publications Limited, 1994, p.60.

[5] – فاروق فهمي، الوجه الأخر للعولمة: المنظومة و تحديات الحاضر والمستقبل، القاهرة: دار الحريري للطباعة، 2002، ص116.

له "**كونفيشيوس**" منذ أكثر من خمس وعشرين قرنا، فهو يرى أنه كما أن الطبيعة مملكة منظمة و متناغمة كذلك ينبغي للمجتمع البشري أن يكون على قدر مماثل من النظام و الانسجام. وهذا كله من أجل الوصول إلى النظام الفعال الذي يحكم المجتمع ككل، وفقا للعلاقات التي تربط السيد بالمسود، والأب بالابن، وبين الأفراد جميعا.

وتساند "**الكونفيشيوسية**" الأخلاقيات البيئية التي تركز على كون الإنسان مركز الكون و محل اهتمامه. و ترى أن تدمير البيئة و الإساءة لها و تلويثها تؤدي في معظم الأحيان إلى نتائج مؤذية لصحة الآخرين مما يعني انتهاك فضائل ثلاث من فضائل "الكونفيشيوسية" ألا و هي: احترام الآخرين و العدالة و الحكمة، فالإساءة للبيئة هي ببساطة منافية للحكمة. كما ينطوي الأمر على الاعتداء على فضيلة رابعة هي الوفاء للذرية، بمعنى الأجيال اللاحقة[6].

و من الواضح أن "**الكونفيشيوسية**" تساهم بقدر وافر في إقرار **الأخلاقيات البيئية**[7]. و كان في رأي "**كونفيشيوس**" أن الحكومة ينحصر واجبها في أمور ثلاث، أولها أن توفر للناس حاجتهم من الطعام، وثانيها أن تهيئ لهم من العتاد الحربي ما يمكنهم من أن يعيشوا مطمئنين من الغارات، و ثالثها أن تخلق الثقة في نفوس المحكومين للحكام، و كان في رأيه أن التقصير في أي من هذه الأمور تكون عاقبته وخيمة[8]. و إذا لم يكن بد من الإستغناء عن أحد هذه الشروط، فإن "كونفيشيوس" يرجح العتاد الحربي ثم الطعام، ذلك أن الموت من الأزل كان قضاء محتوما على البشر، أما إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة[9]. وهذا ما أفسر به أزمة الثقة القائمة بين القيادة والشعب، التي تعانيها جل الدول المستضعفة في عصرنا الحديث.

يقول "كونفيشيوس" عندما سئل عن أول ما يجب أن يفعله لو أصبح إمبراطورا للصين، إن أهم شيء هو تقويم المفردات التي نستخدمها« إن الشخص العاقل، إذا ما أقدم على شيء لا يفهمه فانه لا يعدو أن يكون أكثر أو اقل من شخص يحرج نفسه، فما لم يستخدم المسميات طبقا لمفهومها الصحيح فان القول في مجموعه يصبح معقدا متشابكا بل مبهما، وإذا ما حدث ذلك فان العملية الإدارية تتجمد و تصبح غاية في الصعوبة»[10].

و السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل العلماء اليوم مؤهلون للاشتراك في معترك الجدل النووي؟ وهل هم قادرون على السعي للقيام بحركات شعبية تمارس ضغطا حاسما على السياسيين، عوض الهمس في أذانهم، لأجل الوصول إلى علاج فعال للتهديد النووي؟ والذي أضحى ذريعة لاحتلال و إستغلال و إستضعاف وإستنزاف الشعوب المغلوبة على أمرها؟

ويستخدم كونفيشيوس اصطلاح (لي:Li) للتعبير عن الحشد الهائل من **الأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية المتشابكة**[11]، و هذا ما نادى به "جون جاوس" John Gaus، صاحب المنهج البيئي في الإدارة، مثلما يرى البعض، عام 1947م، حينما دعي إلى ضرورة دراسة العوامل البيئية في كل بلد لكي نصل إلى فهم حقيقي للسمات والصفات التي تميز حكومة ووظائفها وطرق عملها وطبيعة علاقاتها، وتتضمن هذه العوامل في المكان، والسكان، والتقدم

---

(6) - Daniel Leslie, Confucius Philosophe de Tous les Temps: Etude suivie des entretiens de Confucius, Vienne: Presse d'Aubin Ligugé, 1962, p.44.

(7)– سعيد محمد الحفار، الموسوعة البيئية العربية، المجلد التاسع، المرجع السابق الذكر، ص7903.

(8)– أحمد محمد المصري، مفاهيم الإدارة العامة بالدول العربية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1996، ص71.

(9)– ول ديورانت، قصة الحضارات: الهند و جيرانها- الشرق الأقصى (الصين)، المجلد الثاني، (ترجمة: زكي نجيب محمود و محمد بدران)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص61.

(10)– محمد عبد الرحمن، دور الإستشاريين في التنـــظيم، عمان: دار الهنا للطباعة، 1978، ص7.

(11)– فؤاد محمد شبل، حكمة الصين: دراسة تحليلية لمعالم الفكر الصيني منذ أقدم العصور، الجزء الأول، القاهرة: دار المعارف، 1968، ص75.

التقاني (أي التكنولوجي)، **والقيم، والعادات، والتقاليد، والرغبات، والأفكار، التي يمر بها المجتمع** [12]. وكل هذا جعل الصين لها مكانتها المستقبلية بحكم بنيتها التقانية والحضارية والسلوكية للتحكم في السلوك السياسي وإتخاذ القرارات ورسم السياسات والمخططات، بما فيها الدول الأسيوية المنتمية إلى هذا التراث الإنساني[13].

كما يحصر "كونفيشيوس" العلاقات الاجتماعية في خمس علاقات تحدث بين الأب والابن، و بين الحاكم والمحكوم، وبين الزوج والزوجة، وبين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، و بين الأصدقاء، و في هذا محاولة لبناء الهيكل الاجتماعي الصيني القديم و فقا للتقاليد التي تحكم البيئة الصينية وحدها [14]. وهكذا فهي فلسفة أخلاقية من الأساس وإن كان لها أبعادها السياسية الواضحة، حيث تؤكد على أهمية القيم الأخلاقية للنظام الاجتماعي بصفة عامة، والنظام السياسي بصفة خاصة... وهي تؤمن بأن التنافس في حياة الأفراد لابد أن ينعكس بالضرورة على المجتمع[15].

وهذا ما كرره ونادى به أستاذ علم السياسة و مستشار وزارة الدفاع الأمريكية "صمويل هانتغتون" .Samuel.P Huntingtonعام 1993 حينما قال: «...وللناس في الحضارات المختلفة آراء مختلفة عن العلاقات بين **الله والإنسان**[*]، والفرد، والمجموعة، والمواطن، والدولة، والآباء، والأبناء، والزوج، والزوجة، وآراء مختلفة عن الأهمية النسبية للحقوق، والمسؤوليات، والحرية، والسلطة، والمساواة، والتسلسل الهرمي...إنها فروق أساسية، بدرجة أكبر من الإختلافات بين الإيديولوجيات السياسية، والنظم السياسية...» [16].

ولعل فيما سبق ذكره تدليل على الطرح البيئي عند "كونفيشيوس"، بل وإعتباره المنظر الأول له. وهذا ما دعي بالعديد من الباحثين[*] إلى الإقرار بأن الأخلاقيات السياسية الكونفيشيوسية هي التي تحكم إلى اليوم - وبعد قرون - حكام الصين من "ماو تسي تونغ" Mao Tso-Tong (1893-1981م) إلى آخر حاكم.

---

[12] – John M. Gaus, Reflection on Public Administration, Alabama: Alabama University Press, 1947, p.9.

[13]– وليد سليم عبد الحي، المكانة المستقبلية للصين في النظام الدولي: 1978-2010، الإمارات العربية المتحدة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2000، ص13.

[14] - Alfred Deoblin, Les Pages Immortelles de Confucius, Paris: Editions Correa, 1947, p 23.

[15]– محمد محمود ربيع. إسماعيل صبري مقلد واخرون، موسوعة العلوم السياسية، الجزء الأول، الكويت: جامعة الكويت، 1993-1994، ص409.

[*] – من الواضح أن "الكونفيشيوسية" تساهم بقدر عظيم في إقرار الأخلاق البيئية الدولية. و في خلال السنوات العشرين الماضية لوحظ الوعي البيئي المتزايد، وتزايدت الخلافات حدة في موضوع المواقف البيئية للتقاليد المسيحية اليهودية. و قد تركز معظم الخلاف في موضوع العلاقة بين الله و الإنسان و الطبيعة. كما وردت في سفر التكوين من التوراة. لقد إدعى نقاده البيئيون أنه حسبما يرى هناك من كون الإنسان خلق على صورة الله و اعطي الهيمنة على الطبيعة، و أمر بتذليل الأرض، فان سفر التكوين يعطي الإنسان بوضوح حق إستغلال الأرض بدون أي كابح أخلاقي. و هذا ما يمكن تسميته بالتفسير السيادي لسفر التكوين، لكن المدافعين عن الفكر اليهودي المسيحي قد تحدوا كل من هذا التفسير و المنطويات الأخلاقية البيئية التي تنسحب منه، وهم يرون أن جوهر الإنسان الفذ، بخلقه عن صور الله، يلقى عليه واجبات خاصة لعل أهمها مسؤوليته عن إدارة ملكة الأراضي هذا بحكمة و خيرية، وبذلك فان إساءة إستعمال الأرض و تحقيرها أو تدميرها هو انتهاك للأمانة التي أوكلت إليه كخليفة في الأرض. و يمكن أن نسمي هذا التفسير بالتفسير الإستخلافي. وهذا ما لم يظهر جليا في كتابات " **صمويل. ب.هانتغتون**".

[16] - صمويل. ب.هانتغتون، "الصدام بين الحضارات "، مجلة شؤون الأوسط، تصدر بلبنان، العدد: 26، كانون الثاني / شباط 1994، ص 82.

[*] - لمعرفة الخلفية الفكرية والفلسفية السياسية "الكونفيشيوسية" للنظام السياسي الصيني، يرجى الرجوع إلى:

1)- James C.F.Wang, Contemporary Chinese Politics: an introduction, 2nd Edition, New Jersey: Prentice-Hall, Inc., 1976, p. 3.

كما أن رواد المدخل البيئي المعاصرين يقرون – مثلما سنرى ذلك لاحقا- أن الإدارة ما هي إلا نتاج للبيئة التي تعمل فيها، وعليه فإنها ستتأثر حتما بالاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتقاليد التي يتميز بها كل مجتمع.

كما نجد في التراث الإسلامي المفكر العربي الإسلامي والفيلسوف "**أبو علي بن سينا**" (369-428 هـ / 980-1037م)، والذي أتى بتعريف للبيئة يتجاوز التعريفات السالفة الذكر، مركزا من خلاله على الموازنة الواقعة بين البيئة والإنسان، وأي إعتلال في الميزان التوازني في البيئة يقابله بالضرورة إختلال توازني في الميزان الصحي للإنسان.

و يعرف "**أبو علي بن سينا**" البيئة بأنها: الأسباب الفاعلة المغيرة أو المحافظة لحالات بدن الإنسان من الأهوية وما يتصل بها، و المطاعم، و المياه والمشارب والإستفراغ والإحتقان، والبلدان والمساكن وما يتصل بها، والحركات والسكونات البدنية والنفسانية، و منها النوم و اليقظة، و الإستحالة في الأسنان، والأعمار و الاختلاف فيها و في الأجناس، والصناعات والعادات و الرياضة... والأشياء الواردة على البدن الإنساني مماسة له أو مخالفة للطبيعة أو غير مخالفة لها. وهنا تتبلور أمامنا عوامل البيئة الفيزيائية، والعادات والسلوك وأنماط الحياة[17].

كذلك نجد أن العلاقة بين الإنسان و البيئة الطبيعية قد أصبحت مجالا خصبا للبحث فيما يعرف اليوم باسم علم الاجتماع البيئي. و يبحث هذا الفرع في تأثير البيئة بمختلف عناصرها و مكوناتها في النشاط الاجتماعي والاقتصادي، بل في الطابع القومي للأمم، و لا شك أن هذا المجال قد إحتل جزءا كبيرا من إهتمامات رائد العمران البشري، العلامة "**عبد الرحمن بن خلدون**"(732-808هـ / 1332-1406م) [*]، و خصص له فصولا مطولة في المقدمة.

يتناول العالم"**عبد الرحمن ابن خلدون**" في المقدمة الثالثة، الأقاليم وخصائصها البيئية، موضحا بذلك مدى التمايز الواقع بينها في درجات الحرارة والبرودة. و هو يقسم الأرض إلى سبعة أقاليم، ثم يقسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء. ليصل بالنتيجة إلى أن المناخ يلعب دورا أساسيا في ألوان البشر و أخلاقهم وطبائعهم، « فقد بيننا أن المعمور من المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه و البرد في الشمال. و لما كان الجانبان من الشمال و الجنوب متضادين من الحر و البرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فالإقليم الرابع اعدل العمران، و الذي ما فاته من الثالث و الخامس اقرب إلى الاعتدال و الذي يليهما و الثاني و السادس بعيدان عن الاعتدال، و الأول والسابع أبعد بكثير، فلهذا كانت العلوم و الصنائع و المباني و الملابس، و الأقوات والفواكه بل والحيوانات، و جميع ما يكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من

---

2)- Maurice Meisner, Mao's China: a history of the people republic, New York: The free Press (a division of Macmillan Publishing Co., Inc-, 1977, p.4.

3)- Patricia B. Ebrey (Editor), Chinese civilization and society: a source book, London: Collier Macmillan Publishers, 1981,pp.14-15.

4)- Norton Ginsburg and Bernard A. Labor, China: the 80s Era, Colorado: West view Press, 1984, pp. 370-372.

5)- Brian Hook: Editor, The Cambridge Encyclopedia of China, New York - Melbourne (Australia): Cambridge University press, 1991, pp. 301-304.

[17] – سعيد محمد الحفار، «أخطاء تصححها حقائق في البيئة والصحة»، محاضرة تم إلقائها في مجلس الأمة، الجزائر، بتاريخ: 2003/07/10، الجزائر، ص2.

[*] – من أبرز الذين كتبوا عن الرجل هم: أ.د. **حسن الساعاتي**، وأ.د. **على عبد الواحد وافي**، وأ.د. عبد **العزيز الحبابي**، وأ.د. **عبد المجيد مزيان**، وغيرهم...

البشر اعدل أجساما و ألوانا وأخلاقا و أديانا حتى النبوات، فإنما توجد في الإكثار منها، و لم نقف على بعثة في الأقاليم الجنوبية و لا الشمالية، وذلك لان الأنبياء و الرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم و أخلاقهم»[18].

ثم ينتقل "**ابن خلدون**" في المقدمة الرابعة و الخامسة، إلى تناول اثر الهواء في أخلاق البشر، و اختلاف أحوال العمران في الخصب و الجوع و ما ينشا عن ذلك من الآثار في أبدان البشر و أخلاقهم، إذ يقول في هذا الصدد: « اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب و لا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب و الادم و الحنطة و الفواكه لزكاء المنابت وإعتدال الطينة ووفرة العمران، وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعا و لا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش...» [19].

كذلك يرى العلامة " **عبد الرحمن ابن خلدون**" أن خصائص الأقوام تختلف باختلاف خصب الأراضي التي يعيشون عليها، و نوع الأغذية و الأطعمة التي يقتاتون منها، و هو في ذلك يقول: « و اعلم أن اثر هذا الخصب في البدن و أحواله يظهر حتى في حال الدين العبادة، فنجد المتقشفين من أهل البادية و الحاضرة، ممن يأخذ نفسه بالجوع و التجافي عن الملاذ أحسن دينا و إقبالا على العبادة من أهل الترف و الخصب، بل نجد أهل الدين قليلين في المدن و الأمصار، لما يعمها من القساوة و الغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والادم ولباب البر، و يختص وجود العباد و الزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي و كذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طبيباته من أهل البادية و من أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنون و أخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم... واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه، أو على الإقلال منها، و إن له أثرا في الأجسام و العقول في صفائها و صلاحها كما قلناه، و اعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم»[20].

والى هنا، يمكن أن نستنتج أن العلامة"**عبد الرحمن ابن خلدون**" في تعرضه الواضح و الجلي لإبرازه العلاقة التي تربط الإنسان بالبيئة الطبيعية التي يعيش فيها، مع حرصه الشديد على إبراز هذه العلاقة في العديد من الفصول إلى درجة إبرازه للخصائص البيئية لكل إقليم، و هذا ما يؤهله و بكل موضوعية لان يكون الرائد الأول لما يعرف اليوم **بعلم الاجتماع البيئي**، الذي هو جزء من علم العمران البشري.

و تعد البيئة الطبيعية أو **الطبيعة** المصطلح الأكثر اتساعا وشمولا، نظرا لارتباطها المباشر بخالق الكون، بمعنى أن الحيوان و النبات لا يشكلان إلا جزءا بسيطا منها، إذ يضاف اليهما الأراضي و السماوات و الجبال و الأرياف و الموارد الطبيعية و الأنظمة البيئية، و القصد هنا إن كل ما لم تتدخل فيه يد الإنسان يعد طبيعة. وبما أن يد الإنسان إستطاعت أن تصل حاليا إلى اغلب هذه المكونات، فإن الطبيعة كمفهوم، تبقى مرتبطة بذهنية الإنسان في حد ذاته، سواء بإستنزافها وإنتهاكها بدافع اكتشاف موارد طبيعية جديدة، أو سواء بحمايتها و تنميتها وصيانتها.

و البيئة تضيف إلى فكرة الطبيعة أوضاعا و عناصر جديدة مغايرة، بما في ذلك المنشآت الحضرية التي ادخلها الإنسان، و ما ترتب على الإستخدامات التقانية من آثار.

كما أن الاهتمام اليوم لم يعد منصبا على الطبيعة و حدها، بل بالإنسان أيضا، خصوصا إذا تعلق الأمر بجانب العلاقات الاجتماعية تحديدا، و لا يمكن أن يكون موضوعا للقانون[21]. وهذا ما يعرف **بنوعية الحياة**، باعتباره مفهوما مكملا للبيئة.

---

[18] – عبد الرحمن بن خلدون، المقدمـــة، بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ، 1995، ص91.

[19] – عبد الرحمن بن خلدون، المرجع السابق الذكر، ص97.

[20] – نفس المرجع، ص 98-100.

[21] –J. Lamarque, Droit de la Protection de la Nature et de l'Environnement, Paris: L.G.D.J., 1973, p.XIV.

إلا إن خطورة هذا المصطلح تكمن في تغييب منظور لحساب منظور ثان. فبالنسبة للمنظور الغربي (والتغريبي) على حد سواء، نجد أن هذا المفهوم يرتبط بإدارة الوقت والعلاقات الجماعية داخل المناطق الحضرية والرياضة و السياحة وإحترام حقوق الإنسان، و مجتمعات الوفرة الاقتصادية...لكن الأمر إذا تعلق بدول الجنوب، وبالإنسان فيها و الذي أصبح يعيش على هامش الحياة، لا يعدوا أن ينحصر في غنى الشمال الفاحش و فقر الجنوب المتزايد يوما بعد يوم، و مظاهر عديدة أخرى لا تعد و لا تحصى أهمها: تلويث البيئة المفرط و الخطير بسبب دول الشمال - ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تساهم لوحدها في تلويث البيئة العالمية بنسبة تفوق 26 في المائة - وهذا ما حذا بمجموعة من الباحثين إلى القول بأن: « المشكلات البيئية المرتبطة بمراقبة إنبعاثات غازات الدفيئة، لاسيما ديوكسيد الكربون، هي مشكلات اقتصادية و سياسية وليست تقنية»[22].

أما مفهوم **إطار الحياة**، فهو يعني في الواقع جانب الربط بين كل ما من شأنه أن يشكل مجالا مبنيا للإنسان الفرد من جهة، و البيئة الفيزيائية و الاجتماعية من جهة ثانية، و على أساسه يتم إحلال التوازنات بين الأقاليم و الجهات وفقا لقدرات كل إقليم و كل جهة. و بالتالي فإن هذا المفهوم جامع لما هو «قائم من عمران و يدعو لمزيد من العمران الذي قد يكون في الحضر و قد يكون في القرى، فكل تلك من عمران الأرض و هي وظيفة الإنسان منذ أن عاش و إستوطن أو إستعمر أي مكان»[23]، فإطار الحياة كمفهوم يعني التعمير قبل الإسكان بمعنى الإستقرار في المكان والشعور بالهدوء و الطمأنينة و راحة البال و السكينة.

والى هنا يمكن الإستنتاج بان إطار الحياة يعني الإنتقال من المفهوم الكلي للبيئة إلى المفهوم الجزئي لها، فإذا كانت حماية الطبيعة تعني حماية الإنسانية قاطبة (أي **البيئة الكلية**)، فان حماية إطار الحياة تعني حماية فئة اجتماعية بذاتها (أي **البيئة الجزئية**)، كأن نقول حماية: طبقات فقيرة، أو مجموعة أسر، أو عجزة، أو أطفال، أو ذوي إحتياجات خاصة...

و لقد نشأ علم البيئة (أو علم التبيؤ): Ecology الذي يعزوه البعض إلى عالم الطبيعة الألماني "ارنست هيكل" "Ernest Haeckel" في عام 1869 [24]، و كلمة Ecology مكونة من مقطعين يونانيين هما Oikos وهي تعني الموطن أو البيئة، وLogus وهي تعني دراسة. و يعنى هذا العلم بدراسة التفاعل بين كائن حي والوسط الذي يعيش فيه، وتقصى علاقات التأثير المتبادل بين الكائن ومجموعة العوامل المؤثرة في حيز المكان. فعلم البيئة يبحث في أحوال البيئة الطبيعية أو مجموعات النباتات و الحيوانات التي تعيش فيها[25]، و بين الكائنات الحية الموجودة في هذه البيئة.

ولقد درجنا في اللغة العربية على إطلاق اسم علم التبيؤ أو البيئة على التسمية Ecology، فإختلط بذلك الأمر مع مفهوم البيئة بمعنى Environment، فأصبح عالم الايكولوجيا Ecologist، و عالم البيئة Environmentalist وكأنهما تسميتان مترا دفتان لمجال عمل واحد، و لكن الواقع يختلف عن ذلك تماما. فعالم الايكولوجيا يعنى بدراسة وتركيب ووظيفة الطبيعة، أما عالم البيئة فيعنى بدراسة البيئة الحضارية التي تعتبر بحق ترجمة صادقة للتفاعل بين الإنسان و بيئته، أي بين البيئة والحياة، أي انه يتناول تطبيق معلومات في مجالات معرفية مختلفة في دراسة السيطرة على البيئة، فهو يعنى بوقاية المجتمعات من التأثيرات الضارة، كما يعنى بحماية البيئة محليا وعالميا من

---

[22] –Nick Mabey, Stephen Hall, Clare Smith and Sujata Gupta, Argument in The Greenhouse: the International Economics of Controlling Global Warming, London & New York: Routledge, 1997, p.19.

[23] – ميلاد حنا، الإسكان والسياسة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص151.

[24] – P. A. Guesse, Clefs pour l'Ecologie, Paris: Edition Seghers, 1971, p.20.

[25] – David Nicholson–Lord (Editor), Op.cit, p.59.

الأنشطة البشرية ذات التأثير الضار، و بتحسين نوعية البيئة لتناسب حياة الإنسان، و تتأثر البيئة أيضا بتراث الماضي، مثل العادات و التقاليد والأعراف و التاريخ والقانون والمكتشفات العلمية وتطبيقاتها، وأعمال السلف المادية و الفكرية التي خلفت ميراثا حضاريا، كما يشكل الدين والأخلاق عنصرا بيئيا له أهميته البالغة[26].

ومن خلال ما سبق ذكره، أصل إلى تعريف البيئة بناء على المحددات الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتقانية. و بالتالي فالعناصر المكونة للبيئة لا يمكن أن تزيد عن إنسان باعتباره الكائن العاقل الوحيد الذي بإمكانه التأمل في بيئته و التكلم عنها من جهة، و تمايز البيئات على الأصعدة الجغرافية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، والتي تشكل كلها الأسباب الجوهرية الكامنة وراء اختلاف نظرة الإنسان للبيئة باختلاف البيئة الطبيعية التي يعيش عليها، وبتباين المجتمع الذي ينتمي إليه، وبتنوع الثقافة والحضارة التي يستلهم منها أصوله ومراميه.

---

[26] – محمد السيد أرناووط، الإنسان وتلوث البيئة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص18-19 .